# خير يبقى بعد المغادرة

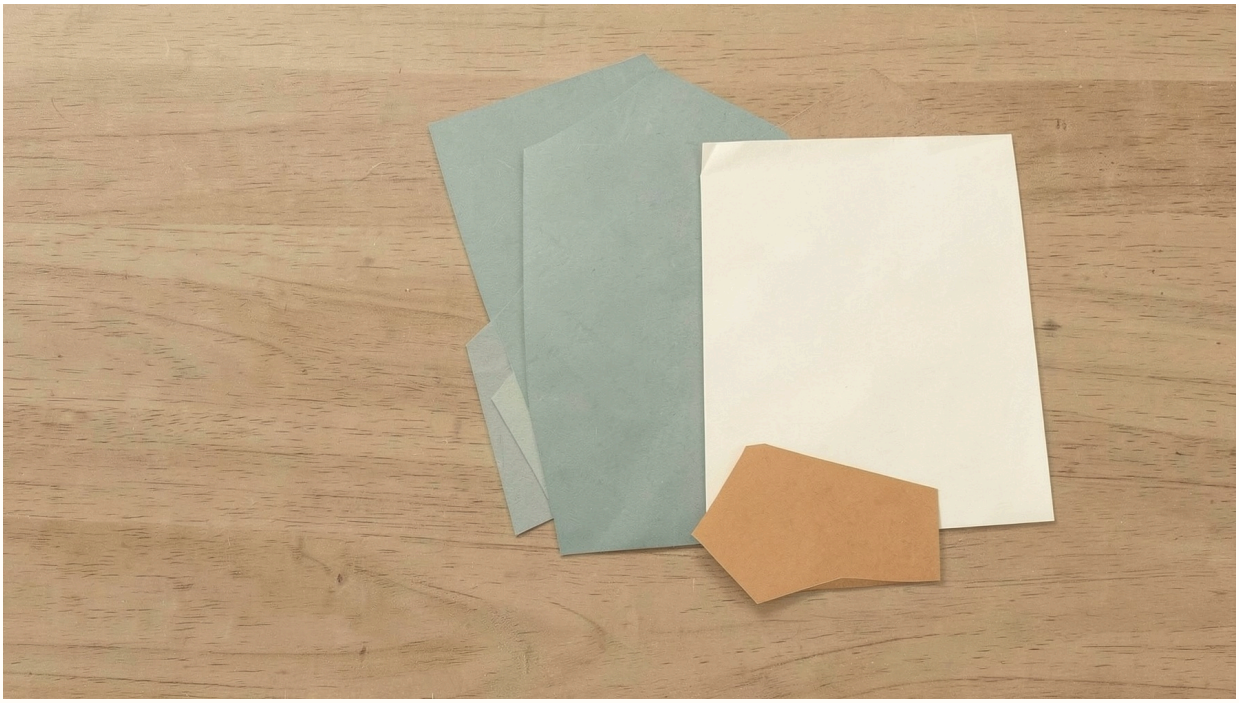


مدارج



دخل يوسف قاعة النادي بعد انتهاء الدروس، يحمل الورقة التي تسلمها صباحا. كان في السادسة عشرة، وقد أنشأ مع زملائه ناديا صغيرا يتبادلون فيه شروحا وتمارين راجعها معلمهم. وضع حقيبته قرب الطاولة، ثم أخبر عمر أنه سينتقل إلى مدرسة أخرى مع بداية الفصل القادم. رفع عمر، زميله الذي يكبره بعام، عينيه عن الأوراق وسأله متى عرف ذلك. أراه يوسف موعد الانتقال، وبقي واقفا لحظة قبل أن يسحب كرسيه. كان يتطلع إلى المدرسة الجديدة، لكنه لم يفكر حتى ذلك اليوم فيما سيحدث لاجتماعات النادي بعد مغادرته.

دخل معلمهما ماهر يحمل دفتر المتابعة. كان قد بلغ الأربعين، ويتولى الإشراف على النادي منذ بدايته. سمع الخبر من يوسف، وسأله عن الوقت المتبقي له معهم، ثم نظر إلى الملفات المكدسة على الطاولة. قال: «إذا احتاج الطلاب شرح الأسبوع الماضي وأنت في مدرستك الجديدة، فمن أين سيبدؤون؟» مد عمر يده إلى مجلد أزرق، ثم توقف وسأل يوسف إن كان هو المطلوب. أشار يوسف إلى مجلد آخر خلفه. كان يعرف أماكن الأوراق لأنه جمعها بنفسه، أما عمر فكان ينتظر منه الإشارة كل مرة.



قرب يوسف المجلدين من بعضهما. بدوا متشابهين من الخارج، ولم يكن على أحدهما ما يوضح الفرق. تذكر كم مرة سأله زملاؤه عن ورقة أو تمرين، فأخرجه لهم بسرعة ثم عاد إلى عمله. لم يكن يريد أن يتأخروا، لكنهم لم يحتاجوا وقتها إلى معرفة طريقه بين الملفات. جلس ماهر إلى طرف الطاولة وترك لهما مساحة لينظرا إلى ما أمامهما. قال يوسف إنه لم يرتب بعد ما سيتركه للنادي. بقيت الورقة التي تحمل موعد انتقاله قرب المجلدين، ولم يعد الموعد متعلقا بحقيبته وكتبه وحدها.

فتح عمر المجلد الذي قربه يوسف، وسحب منه ورقة الشرح التي استعملوها في الاجتماع السابق. أراد أن يبدأ منها إعداد التمرين المقبل، فقرأ السطر الأول ثم وضع إصبعه تحت التعليمات. كانت تطلب منه أن ينظر إلى المثال الثاني، وبعده يحاول حل السؤال وحده. بحث عن المثال في أسفل الورقة، ثم قلبها؛ لم يجد إلا سؤالا وتاريخا بخط يوسف. رفع الورقة قليلا وسأله إن كانت لها صفحة أخرى. مد يوسف يده نحو المجلد، لكن عمر أبقاه أمامه وقال إنه يريد أن يحاول العثور عليها بنفسه.

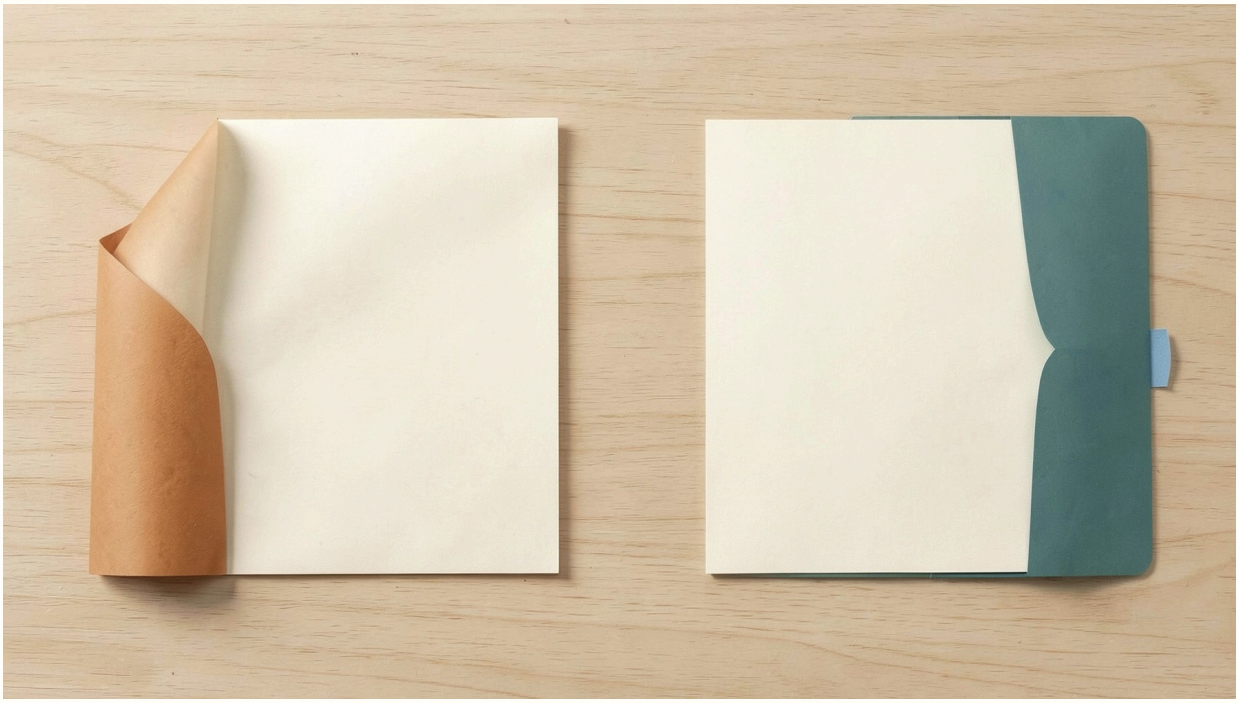
انتقل عمر بين الأوراق ببطء، محافظا على ترتيبها حتى يستطيع إعادتها. وجد ورقة تشبه الأولى، لكن المثال فيها يخص تمرينا مختلفا. أعادها إلى مكانها، ثم وضع الورقتين متجاورتين على الطاولة وأراهما ليوسف. قال: «أستطيع قراءة التعليمات، لكن لا أعرف أي مثال تقصد». اقترب يوسف من السطر الذي أشار إليه زميله، وتذكر أنه شرح المثال يومها على السبورة، ولم يضعه في المجلد. كان ماهر جالسا عند طرف الطاولة، فسألهما عما وجده عمر فعلا، وانتظر حتى أشارا إلى موضع الإحالة في الورقة.



كاد يوسف يعيد الشرح بصوته كما فعل في الاجتماع الماضي. فتح فمه، ثم توقف وهو ينظر إلى إصبع عمر تحت السطر. سأل معلمهما: «هل أكمل له الآن؟» أجابه ماهر بأن يحددا أولا ما يحتاجه عمر ليعمل دون أن يسأل يوسف كل مرة. أخذ عمر قصاصة صغيرة، وكتب عليها أن المثال المشار إليه غير موجود مع التعليمات. تركها فوق الورقة، ولم يضف شرحا من عنده. صار موضع التوقف واضحا أمام الثلاثة؛ بقيت الخطوة نفسها بحاجة إلى كتابة ومراجعة.

أدرك يوسف أن مجرد ترك الأوراق كما هي لن يساعد عمر أو غيره بعد رحيله. جلس بجانب عمر، وبدأ يمرر أوراقه ببطء، متفحصا كل ورقة شرح وكل تمرين. كان يبحث عن تلك المعلومات التي أثبتت جدواها خلال اجتماعاتهم السابقة، مستبعدا المسودات غير المكتملة أو الأفكار التي لم تتبلور بعد. أراد أن يترك خلفه أثرا حقيقيا، علما ينتفع به الزملاء، وليس مجرد كومة من الأوراق المبعثرة التي قد تسبب لهم الارتباك.

بدأ يوسف يجمع الأوراق المختارة في مجلد واحد، بينما كان المعلم ماهر يراقبه باهتمام. سأل ماهر: «ما هي المعايير التي تختار بناء عليها؟» أجاب يوسف وهو يضع ورقة شرح معقدة جانبا: «أختار ما يسهل على الطالب فهمه وتطبيقه فورا، فالعبرة بالنفع لا بكثرة الأوراق». كان يوسف يحرص على أن تكون المواد المختارة واضحة، بحيث يمكن لأي طالب جديد أن يبدأ منها دون الحاجة لسؤاله عن تفاصيل غائبة أو إشارات غير واضحة.



بعد الانتهاء من الاختيار، أحضر يوسف ورقة بيضاء وبدأ في كتابة قائمة جرد بسيطة. سجل فيها عناوين المواضيع، وأرقام الصفحات، وملاحظات قصيرة حول كيفية البدء بكل تمرين. سجل ما يخص المواد التعليمية، وترك قائمة الحضور عند

المعلم. واحتفظ بالورقة ذات المثال الناقص في غلاف منفصل، حتى يراجعها مع ماهر بعد كتابة الشرح. وضع القائمة في مقدمة المجلد، ثم سلمها لعمر وماهر. نظر يوسف إلى القائمة، ثم أشار إلى أن عمر لم يجرب اتباعها بعد؛ كان عليهما معرفة ما ينقصها قبل تسليم المسؤولية.

أمسك عمر قائمة الجرد وقرب المجلد منه، بينما أبقى يوسف يديه على طرف الطاولة. بدأ عمر بقراءة عنوان أول تمرين، ثم بحث عنه بين الفواصل الورقية. عثر على ورقة تحمل العنوان نفسه، لكن التعليمات فيها أقصر من الوصف الذي قرأه في القائمة. عاد إلى السطر ليتأكد أنه لم يتجاوز كلمة، ثم وضع الورقة أمام يوسف وسأله إن كانت هي المطلوبة. كاد يوسف يشير إلى موضع آخر داخل المجلد، لكنه سحب إصبعه وطلب منه أن يبين ما قاده إلى اختياره. أراد هذه المرة أن يرى الطريق الذي يسلكه عمر فعلا.

أشار عمر إلى العنوان المكتوب على الفاصل، ثم إلى عنوان الورقة. كانا متطابقين، إلا أن يوسف تذكر أنه احتفظ بنسخة أقدم من التمرين للمقارنة. أخرجها من موضعها، ووجد خلفها النسخة التي راجعها ماهر. لم يكن الفرق في مكان يراه من يبحث عن العنوان فقط. قال عمر: «كنت سأبدأ بهذه؛ لم أر ما يدل على أنها القديمة». نظر ماهر إلى النسختين، ثم طلب إبقاء القديمة خارج المواد التي سيستخدمونها في التجربة. وضعها يوسف في غلاف المسودات المنفصل، وكتب على النسخة الأخرى عنوانا يوافق القائمة، وأضاف تاريخ مراجعتها.



أعاد يوسف المجلد إلى عمر، بدل أن يفتح له الصفحة بنفسه. قرأ عمر السطر المصحح، وتتبعه حتى وصل إلى الورقة ذات التاريخ المحدد. قارن بداية التعليمات بما في القائمة، ثم وضع علامة صغيرة بجوار هذا البند وحده. لم ينتقل إلى بقية البنود؛ بقي وقت الاجتماع قصيرا، ولم يجربها بعد. دون يوسف على هامش القائمة سبب الالتباس حتى يعرضه مع النسختين عند المراجعة.

فتح المعلم ماهر المجلد الذي وضعه يوسف أمامه، وبدأ يتصفح قائمة الجرد بتمعن. كان يقلب الأوراق واحدة تلو الأخرى، متفحصا الترتيب الجديد والملحوظات التي أضافها يوسف لتوضيح المسارات. لم يكن يبحث عن الكم، بل عن مدى وضوح الخطوات التي سيتبعها عمر. سحب المعلم ورقة من وسط المجلد، وأشار إلى ملاحظة جانبية، ثم نظر إلى يوسف الذي كان يراقب بصمت، منتظرا تقييم أستاذه للمجهود الذي بذله في تنظيم هذه المواد التعليمية.

قال ماهر وهو يغلق المجلد جزئيا: «لقد قمت بعمل جيد في تحديد الأساسيات، لكن المسؤولية الآن تنتقل تدريجيا. سأكلف عمر بمهمة محددة وهي متابعة تمرينين فقط من هذه القائمة تحت إشرافي المباشر في الأسبوعين القادمين». لم تكن المهمة كبيرة،

لكنها كانت خطوة عملية لضمان أن عمر يستطيع التعامل مع المجلد دون الاعتماد الكلي على توجيهات يوسف المباشرة. أراد المعلم أن يختبر قدرة عمر على استخراج المعلومة الصحيحة من بين الأوراق المنظمة.



اتفق الثلاثة على تحديد موعد بسيط لمراجعة ما تم إنجازه في تلك الفترة القصيرة. قال ماهر: «سنلتقي بعد أسبوعين لنرى كيف سار الأمر، وسنركز فقط على تلك الجزئية التي حددناها». لم يطلق المعلم وعودا بالنجاح الباهر أو التميز، بل ركز على المراجعة الواقعية للخطوات العملية. أومأ يوسف وعمر بالموافقة، وشعر يوسف براحة طفيفة وهو يرى أثره يبدأ في التحول إلى مسؤولية منظمة. في نهاية الجلسة، طلب المعلم من عمر البدء في قراءة أول تمرين في القائمة وتدوين ملاحظاته الأولية.

بعد أسبوعين، عاد عمر إلى الطاولة في الموعد الذي اتفقوا عليه. وضع ماهر المجلد أمامه، وطلب منه تجهيز ورقة التمرين الأول للاجتماع. فتح عمر القائمة، وقرأ العنوان والتاريخ معا، ثم أخرج النسخة التي تطابقهما ووضعها إلى جوارها. بقيت يدا يوسف قرب حقيبته. انتظر عمر قليلا، ثم سأل المعلم إن كان سيحتاج إلى ورقة الحل

أيضا. طلب منه ماهر أن يبين ما تقوله التعليمات قبل إضافة أي ورقة. وجد عمر سطرا يحدد ما يجهز قبل الاجتماع، واكتفى بما فيه. لم يحتج يوسف إلى البحث بدلا منه.

بعد ذلك أعاد عمر الورقة إلى موضعها، وسجل في القائمة أنه جرب العثور عليها وإعادتها تحت إشراف المعلم. أشار إلى بند التمرين الثاني وقال إنه لم يختبره بالطريقة نفسها. ترك ماهر هذا البند دون علامة، وحدد وقتا قصيرا لفحصه في الاجتماع المقبل. نظر يوسف إلى النسخة القديمة داخل غلاف المسودات، ثم إلى التاريخ الذي ساعد عمر على اختيار الورقة. كان قد ظن أن معرفته بأماكن الأشياء تكفي؛ أما الآن فقد رأى خطوة يستطيع زميله اتباعها، وخطوات أخرى ما زالت تحتاج إلى تجربة.

قبل أن يضم يوسف أوراق انتقاله إلى الحقيبة، طلب ماهر منهما تجربة ترتيب صغير على ورقتين خاليتين. يمكنك تجربته أيضا: سم إحداهما «تمرين النافذة» والأخرى «تمرين الحديقة»، واكتب لكل واحدة تاريخا متخيلا مختلفا. جهز قائمة قصيرة بالعنوانين والتاريخين، ثم اطلب من زميل العثور على ورقة واحدة وإعادتها. إذا التبس عليه الأمر، عدل وصفها وجربا هذه الخطوة وحدها مرة أخرى. أغلق يوسف حقيبته، وبقي المجلد على الطاولة عند معلمهما.